



معلومات البحث

تاريخ الاستلام: 18-04-2026 .

تاريخ القبول: 22-05-2026

Printed ISSN: 2352-989X

Online ISSN: 2602-6856

التبعية الإبستمولوجية وأزمة الهوية في سوسولوجيا التربية: دراسة تحليلية
معمقة لبعض أطروحات عالم الاجتماع الجزائري سعيد عيادي

*Epistemological Dependency and Identity
Crisis in the Sociology of Education: An In-
Depth Analytical Study of Selected Theses by
Algerian Sociologist Saïd Ayadi*

هراو خنير

¹المركز الجامعي آفلو (الجزائر) k.heraou@cu-flou.edu.dz

ملخص: يتناول هذا المقال إشكالية التبعية الإبستمولوجية وأزمة الهوية في سوسولوجيا التربية بالجزائر من خلال قراءة تحليلية معمقة لأطروحات المفكر الراحل سعيد عيادي، بوصفه أحد أبرز من اشتغلوا على التعليم بمنظور نقدي جذري يربط المعرفة بالتاريخ والهوية. ينطلق التحليل من تحديد الإطار المرجعي لعيادي ومفهومه للبراديغم الثقافي، باعتباره محددًا موجهًا للأهداف الوطنية والسلوكية، ويبرز كيف أدى غياب براديغم ثقافي موحد بعد استقلال الجزائر إلى تذبذب السياسات التعليمية واستمرار قابلية استيراد النماذج الأجنبية. ثم يدعو إلى ترسيص القواعد الثقافية، وتمكين الطفل وإشراك الأسرة، وإعادة ربط الجامعة بالحقائق الوطنية وواقع المجتمع الجزائري لبناء مشروع تربوي أصيل ومتجذر نابع من أصالة المجتمع.

الكلمات المفتاحية: التبعية الإبستمولوجية، أزمة الهوية، سوسولوجيا التربية

ABSTRACT

This article addresses the issue of epistemological dependency and identity crisis in the sociology of education in Algeria through an in-depth analytical reading of the theses of the late thinker Saïd Ayyadi, recognized as one of the foremost scholars who engaged critically and radically with education by linking knowledge to history and identity. The analysis begins by delineating Ayyadi's referential framework and his conception of the cultural paradigm as a determinant guiding national and behavioral objectives. It highlights how the absence of a unified cultural paradigm following Algeria's independence led to fluctuations in educational policies and the persistent importation of foreign models. The article then advocates for the entrenchment of cultural foundations, the empowerment of children, the involvement of families, and the reconnection of the university with national realities and Algerian societal contexts to construct an authentic, rooted educational project grounded in the society's intrinsicheritage.

Keywords: Epistemological dependency, identity crisis, sociology of education

أولاً: الإطار المرجعي والسياق الفكري لأطروحات سعيد عيادي

يعد البروفيسور سعيد عيادي، أستاذ علم اجتماع المعرفة بجامعة البليدة، أحد أبرز المفكرين الذين تناولوا إشكالية التعليم في العالم العربي والإسلامي من منظور نقدي جذري. لا يقتصر عمله على تحليل الظواهر الاجتماعية السطحية، بل يتعمق في الأسس الإستيمولوجية والثقافية التي يقوم عليها النظام التعليمي. لقد اشتهر عيادي بكونه "موسوعة" تمزج ببراعة بين التخصص الأكاديمي الدقيق في القضايا الاجتماعية والشغف العميق بالتاريخ. هذا المزج المنهجي بين علم الاجتماع والتاريخ ليس مجرد أسلوب تجميلي، بل هو ضرورة منهجية لفهم الجذور العميقة للأزمات الراهنة.

1. النشأة الفكرية والموقع الإستيمولوجي للبروفيسور عيادي

تجسد مسيرة الدكتور سعيد عيادي الفكرية، عطاءً فكرياً وثقافياً غزيراً. كان تركيزه منصباً على القضايا الاجتماعية التي تتشابك فيها المعرفة بالهوية والتاريخ. وقد ظهر هذا جلياً في إسهاماته الرئيسية الموثقة، ومن أبرزها مؤلفاته تاريخ علم الاجتماع واتجاهاته في الجزائر، وترخيص القواعد الثقافية لإعادة البناء الحضاري، والبراديجم الإسلامي وإعادة البناء الحضاري. تشير هذه العناوين بوضوح إلى أن الهدف النهائي من تحليلاته لم يكن فقط وصف واقع التعليم، بل الدعوة إلى تأسيس نظام فكري ومعرفي قادر على قيادة مشروع حضاري أصيل.

إن اهتمام عيادي بتدوين التاريخ السوسيولوجي لعلم الاجتماع في الجزائر يمثل خطوة منهجية حاسمة. فهو يدرك أن علم اجتماع المعرفة يجب أن يكشف عن الكيفية التي تم بها إنتاج المعرفة ونقلها وتأدجها عبر الزمن. وبالتالي، فإن دراسة تاريخ التخصص في الجزائر تكشف عن آليات التبعية المعرفية منذ الحقبة الكولونيالية وما تلاها. هذا الارتكاز المنهجي يعني أن عيادي لا يمارس علم اجتماع تقليدي يركز على الوظائف والهياكل القائمة، بل يمارس علم اجتماع نقدي يهدف إلى إعادة النظر في الأسس الإستيمولوجية التي بُني عليها النظام التعليمي بأكمله (سعيد، 2018).

2. تحليل مفهوم "البراديجم الثقافي" في رؤية عيادي

يشكل مفهوم "البراديجم الثقافي" الركيزة الأساسية لأطروحة عيادي النقدية. في سياقه، لا يُقصد بالبراديجم مجرد إطار منهجي أو علمي، بل هو إطار مرجعي شامل وقيمي يوجه الأهداف السلوكية والاجتماعية والوطنية للمجتمع. ويرتبط هذا البراديجم ارتباطاً وثيقاً بـ "المشروع الديني للأمة"، الذي يراه عيادي المخرج الوحيد للأمة إلى بر الأمان.

لفهم عمق أزمة البراديجم، يستعرض عيادي الخلفية التاريخية للصدام الأيديولوجي الذي أعقب مرحلة التحرير في الجزائر. حيث كان هناك تيار يؤمن بالدور المحوري للمشروع الديني كقوة دافعة للأمة، في مقابل تيار آخر، ممن درسوا في مدارس الشرق (مثل موسكو) أو الغرب، رفضوا هذا التوجه واعتبروه غير ممكن التحقق. هذا الصراع التاريخي لم يتم حسمه لصالح براديجم موحد، بل أدى إلى نظام تعليمي متذبذب ومشتت الأهداف (عيادي، 2009).

إن هذا الفشل في ترسيخ براديجم ثقافي موحد بعد الاستقلال هو الجذر الأساسي لـ "أزمة الهوية" التي تتسرب إلى التعليم. لقد جعل هذا التذبذب النظام التعليمي عرضة لاستيراد نماذج أجنبية دون وعي بالآثار السلبية العميقة على الهوية. ولذلك، فإن سوسيولوجيا عيادي تتجاوز حدود علم الاجتماع الوصفي لتصبح سوسيولوجيا تاريخية، تكشف كيف أن عدم حسم القضايا الكبرى في الماضي يترجم اليوم إلى ضعف في الإنتاج العلمي وعجز عن تحقيق النجاح البيداغوجي. إن نظام التعليم الذي يفتقر إلى قوة الدفع الهوياتية يظل نظاماً تابعاً، لا يستطيع بناء الحضارة (أحمد، 2014).

ثانياً: نقد الأسس الفلسفية والبيداغوجية للنموذج الغربي المستورد

ينطلق البروفيسور عيادي في نقده للأنظمة التعليمية العربية من حقيقة أن هذه الأنظمة ما زالت تعيش حالة تبعية إستمولوجية عميقة، تحول دون تحقيقها للأهداف الحضارية المرجوة. ويرى أن جوهر المشكلة يكمن في عملية استيراد المعرفة التي تتم دون تحليل نقدي لأسسها الفلسفية والأيدولوجية الكامنة.

1. التبعية الإستمولوجية: الجامعات العربية ونظرية الموضوعية المأدلة

يشير عيادي إلى ظاهرة خطيرة تتمثل في أن الجامعات في العالم العربي الإسلامي "تتغذى بالكامل على هذه المعرفة المصبوغة بالصبغة الثلاثية والصبغة الغربية". والمفارقة الكبرى هنا هي أن أوروبا "تسوق هذه النظريات على أنها موضوعية وهي العلم".

يعتبر هذا النقد الموجّه لمفهوم الموضوعية نقداً جوهرياً. فالمعرفة الغربية، خاصة في حقل العلوم الإنسانية، ليست محايدة أو "موضوعية" بالمعنى العلمي المطلق، بل هي معرفة مؤدلة تحمل قيماً وأبعاداً إيديولوجية عميقة. هذا التحليل ينبع من إدراك سوسيولوجي بأن علم الاجتماع نفسه ينتمي إلى حظيرة العلوم الإنسانية ذات الأسس الفلسفية والأبعاد الإيديولوجية. وقد بذل المؤسسون جهوداً لإخضاعه للموضوعية على غرار العلوم الطبيعية، لكن طبيعة موضوعه (الإنسان) حالت دون ذلك، مما أبقى الإطار الفلسفي والإيديولوجي يشد قبضته على بنية هذا العلم.

إن مصطلح "الصبغة الثلاثية" يحمل دلالة الأدلة والتبعية متعددة الأوجه، التي قد تشمل التبعية الفلسفية، والمنهجية، والقيمية. عندما يتم استيراد نظرية تربوية (كالنظريات البنيوية أو السلوكية) إلى مجتمع عربي إسلامي، فإنها تحمل معها افتراضات فلسفية غربية، كالفردانية أو العلمانية، التي قد تتعارض جذرياً مع الأسس الثقافية والأخلاقية المحلية. هذا التناقض بين ادعاء الغرب بالموضوعية وحقيقة كون المعرفة مصبوغة يؤدي إلى تآكل داخلي في الهوية الفكرية للطلاب والأكاديمي، ويفسر ضعف الإنتاج العلمي الأصيل في العالم العربي. إن النتيجة ليست مجرد سوء تطبيق، بل فقدان للقدرة على الإبداع المعرفي الذاتي. (عيادي، ترخيص القواعد الثقافية لاعادة البناء الحضاري، 2009)

2. سوسيولوجيا التبعية وتفكيك الإرث الكولونيالي

يعود جزء كبير من أزمة التبعية الإستمولوجية إلى الإرث الكولونيالي السوسيولوجي والأنثروبولوجي. يلاحظ عيادي، وغيره من السوسيولوجيين، أن جل الدراسات السوسيولوجية في العالم العربي، والتي تتناول قضايا محلية كالأسرة والنظم الاجتماعية

التبعية الإستيمولوجية وأزمة الهوية في سوسيولوجيا التربية: دراسة تحليلية هراو خثير

والدين، تعكس في مفاهيمها ومنهجها وتحليلها نظريات وآراء علماء الاجتماع الفرنسيين والإنجليز الذين أجروا أبحاثهم خلال الحقبة الاستعمارية.

في السياق المغاربي، تتضح هذه التبعية بشكل ملموس في السلطة الرمزية التي تتمتع بها اللغة الفرنسية في نظام التعليم، مما يدل على أن التخلص من التبعية وتداعيات الهيمنة الاستعمارية لم يتم بشكل كامل حتى اليوم. إن سلطة اللغة الرمزية ليست مجرد مشكلة بيداغوجية في اختيار لغة التدريس؛ بل هي دليل مادي على استمرار الهيمنة الفكرية. فإذا كانت اللغة الأم، بما تحمله من مكونات ثقافية أصيلة وتاريخية، لا تتمتع بالسلطة العليا في التعليم، فإن أي محتوى تربوي يُقدم سيظل منزوع القيمة الثقافية الفاعلة، ومحدوداً في دوره كأداة تقنية لا تستطيع بناء حضارة.

لذلك، يدعو عيادي إلى "ثورة بكل معنى ما يسمى بالثورة" تتمثل في "إعادة النظر في كل ما يعطى في جامعاتنا". هذه الدعوة ليست مجرد مطالبة بإصلاحات منهجية، بل هي دعوة لقطع الصلة بالإستيمولوجية مع المركزية الغربية. وهنا يمكن التأكيد على ضرورة التحرر من الأحكام القيمية المتضمنة في النظريات التنموية الغربية التي تعجز عن فهم الواقع الاجتماعي للبلدان النامية، مما يفرض على علم الاجتماع العربي تحديد استراتيجيته كمنع للأحكام القيمية التي تتماشى مع الظروف المحلية.

ثالثاً: نظرية القوة الثقافية كأساس للنجاح البيداغوجي

تعتبر نظرية "القوة الثقافية" (Cultural Power) حجر الزاوية في فكر الدكتور سعيد عيادي، وهي التي تميز مقاربة سوسيولوجيا التربية لديه. لقد قدم عيادي أطروحة مركزية تقلب المنطق التقليدي للإصلاح التربوي، مشدداً على أن الفعالية التعليمية لا تُقاس بالكفاءة التقنية البيداغوجية وحدها، بل بالقدرة الثقافية الكامنة وراءها.

1. الأطروحة المركزية: الثقافة كوقود للنجاح البيداغوجي

يصرح عيادي بوضوح بأن المشكلة ليست في نقص البيداغوجيا أو القواعد التي يتلقاها العقل البشري، بل في غياب الأساس الثقافي الداعم. فالإشكالية العامة التي يطرحها هي أنه "لا يمكن الحديث عن نشاط ونجاح بيداغوجي ما لم يكن وراءه قوة وقدرة في الجانب الثقافي". هذه القوة الثقافية هي التي "تميز الأمم".

هذه الأطروحة تمثل نقداً مباشراً لمقاربات الإصلاح التقنية التي تفترض أن استيراد أفضل المناهج والخبراء كافٍ لتحقيق التنمية. ويصل عيادي إلى نتيجة جذرية تؤكد أن المشكلة هيكلية ثقافية وليست مشكلة موارد أو خبراء، حيث يقول: "ولو نأتي بألع العقول أو أفضل النماذج في العالم لن تغير المجتمع". هذا القول يؤكد أن الإصلاحات التي تعتمد على تقنيات بيداغوجية حديثة تفشل لأنها تعالج الوسائل دون الغاية. الغاية الحضارية لا يمكن استيرادها؛ بل يجب أن تنبع من الإيمان بالذات والقيم المحلية، وهو ما يطلق عليه عيادي "القوة الثقافية". إن المشكلة في العالم العربي هي أزمة إرادة ثقافية وليست أزمة كفاءة فنية أو موارد مادية (عيادي، البراديقم الاسلامي لاعادة البناء الحضاري، 2009).

2. المقارنة التحليلية مع النموذج القيمي

لتوضيح أهمية الاستثمار الرمزي والثقافي في التعليم، يقدم عيادي تحليلاً لمقاربات أنظمة تعليمية أخرى تركز على هذا الجانب. يستعرض عيادي ممارسات نظام تعليمي (في السياق الإسرائيلي) لا يكتفي باتباع قواعد البيداغوجيا العادية، بل يركز بقوة على الجانب الثقافي.

آلية هذا التركيز الثقافي تكمن في غرس قيم التفوق والتميز والبروز لدى المتعلمين، وربط هذا التفوق بالهوية الدينية العظمى (أمة تعبد "ياهو"، وتحمل قيمه ورموزه). إن الهدف من هذه المقارنة ليس الدعوة إلى تقليد النموذج سالف الذكر، بل إظهار أن النجاح التربوي مرتبط بـ "سوسيولوجيا الدافعية" القائمة على الإحساس بالاصطفاء والالتزام الوجودي تجاه الأمة والحضارة. عندما يتم ربط التعليم بقيم عظمى تتجاوز النجاح الشخصي (مثل الالتزام تجاه المشروع الحضاري)، يتحول التحصيل العلمي إلى واجب وجودي. على النقيض، عندما يفصل التعليم العربي البيداغوجيا عن الهوية، يصبح الهدف وظيفياً بحتاً (الحصول على وظيفة أو شهادة)، مما يفسر ضعف الدافعية الذاتية والقدرة على التفوق عالمياً.

3. ترخيص القواعد الثقافية وإعادة البناء الحضاري

تتركز رؤية عيادي على ضرورة "ترخيص القواعد الثقافية لإعادة البناء الحضاري". ويدخل في هذا الإطار أهمية "التعليم الأصيل" في الجزائر ودوره في "تثبيت مواد الهوية". هذا الترخيص لا يقتصر على المؤسسة المدرسية فقط.

يؤكد عيادي على دور المؤسسات المجتمعية الأخرى، مثل الإعلام الجوّاري (الإذاعة)، الذي يمكن أن يذهب بعيداً في ترسيم حدود وقواعد "الأمن الثقافي". يتم ذلك عبر تقديم "ثقافة جزائرية أصيلة متراكمة تاريخياً" تخلق علاقة توافقية تفاعلية مع المستمع، مما يساهم في اكتساب ثقافة مواطنة إيجابية وروح وطنية سليمة. هذا التوجه يوضح أن إعادة البناء الحضاري تتطلب تضامراً جهود جميع المؤسسات المجتمعية لضمان الاتساق الثقافي الذي يدعم النظام التعليمي.

لفهم الأطروحة المركزية لعيادي، يمكن مقارنة نموذج النجاح التربوي بالنموذج البيداغوجي التقليدي المستورد:

نموذج سعيد عيادي للنجاح التربوي: القوة الثقافية مقابل المنهج البيداغوجي

النقاش الذي يثيره عيادي ليس جدالاً حول كيفية التدريس، بل حول لماذا ندرس وما هو الهدف الحضاري الأسمى للعملية التعليمية. النجاح الحقيقي يتطلب تحولاً جذرياً في الإطار القيمي الذي يوجه العملية التعليمية. لأن التباين بين المنظور البيداغوجي التقليدي المستورد ونموذج سعيد عيادي للقوة الثقافية يمثل تحليلاً سوسيولوجياً لتوجهات المؤسسة التعليمية في إنتاج الفرد والمجتمع. فبينما يرى النموذج التقليدي أن أساس النجاح في الكفاءة التقنية القائمة على القواعد والإجراءات التعليمية المنظمة، مما يصبغه بصبغة وظيفية تسعى لتلبية متطلبات السوق والتنمية الاقتصادية، و يعيد تعريف النجاح على أنه "إرادة وجودية" مستمدة من القوة الثقافية والهوياتية. هذا التباين ينتقل بالتعليم من كونه آلة وظيفية إلى كونه مشروعاً حضارياً غايته

التبعية الإستيمولوجية وأزمة الهوية في سوسيولوجيا التربية: دراسة تحليلية هراو خثير

القصوى إعادة البناء الحضاري والتميز والبروز وبناء القادة، متجاوزاً بذلك الغايات المادية المحدودة للنموذج المستورد(عيادي)، ترصيص القواعد الثقافية لإعادة البناء الحضاري، (2009).

ويبرز الاختلاف الجوهرى الآخر في طبيعة المعرفة المقدمة وتأثيرها على الوعي الاجتماعى. فالمنظور التقليدي يتبنى معرفة موضوعية وعلمية كونية، لكنها في الواقع مصبوعة بالصبغة الغربية، مما يشير إلى تبعية معرفية قد تؤدي إلى اغتراب ثقافي. في المقابل، يدعو منظور القوة الثقافية إلى معرفة متحررة من التبعية، نابعة من "البراديجم الإسلامي"، مما يجعل من عملية اكتساب المعرفة فعلاً مقاوماً يهدف إلى بناء وعي ذاتي ومنفصل عن الهيمنة الإستيمولوجية الغربية. هذا التحول يعكس تطلعا لإنشاء نظام فكري واجتماعي مؤسس على مرجعية ثقافية ذاتية أصيلة.

أما على مستوى البنية الاجتماعية الداعمة للعملية التربوية، فيعيد النموذجان تعريف وظيفة الأسرة. ففي النموذج المستورد، يتم تهميش الدور التربوي للأسرة ليقصر على الرعاية الصحية والعاطفية والدعم المادي، في فصل واضح بين مؤسسة التعليم ومنظومة القيم المنزلية. بينما يمنح منظور عيادي الأسرة دوراً شريكاً تربوياً ونفسياً محورياً وموجهاً لضمان الانضباط والفرز، ويطلق عليها وصف "مدرسة الأولياء". هذا الدمج الهادف لرأس المال الاجتماعي للأسرة في العملية التعليمية يهدف إلى ضمان التناغم القيمي بين المؤسسات الاجتماعية المختلفة، وتحويل الأسرة إلى عامل رئيسي في تحقيق الإرادة الوجودية المطلوبة للنهوض الحضاري.

رابعا: سوسيولوجيا إعادة الإنتاج وتكييف المفاهيم النظرية

في سعيه لتقديم تحليل سوسيولوجي نقدي للتعليم، يتعين على الباحثين في السياق العربي التعامل مع الترسانات النظرية الغربية، مع الوعي التام بأزمة الإسقاط والتبعية الإستيمولوجية التي نبه إليها سعيد عيادي.

1. تطبيق نظرية بيار بورديو على الواقع الجزائري

تعد نظرية البنية التكوينية التي وضعها بيار بورديو من أهم الأطر التي أغرقت حقل سوسيولوجيا التربية. تتضمن هذه النظرية مجموعة من المفاهيم المترابطة، مثل "إعادة الإنتاج"، و"الهابتوس" (Habitus)، و"الرساميل المختلفة" (الثقافي والاجتماعي والرمزي)، التي توفر أدوات تحليلية قوية لفهم آليات اشتغال حقل التعليم. (حداب، 2018)

ومع ذلك، يواجه الدارسون لحقل سوسيولوجيا التربية في الجزائر تحدياً منهجياً جوهرياً: هل يمكن إسقاط هذه النظرية الميتاسوسيولوجية، التي نشأت في سياق المجتمع الفرنسي الرأسمالي، على الواقع السوسيوثقافي الجزائري، نظراً للاختلافات الجوهرية في طبيعة المجتمع والبنى الثقافية ؟

إن التساؤل حول حدود الميتاسوسيولوجيا هو في جوهره امتداد نقدي لأطروحة عيادي حول التبعية. فإذا كانت مفاهيم بورديو تحتاج إلى تكييف جذري في الجزائر، فذلك يؤكد عدم عالمية النظريات الاجتماعية. هذه النقطة تبرر الحاجة الملحة لتطوير

التبعية الإستيمولوجية وأزمة الهوية في سوسيولوجيا التربية: دراسة تحليلية هراو خثير

أدوات ومفاهيم سوسيولوجية نابعة من البيئة المحلية، وهو ما سعى عيادي لتأسيسه عبر دراساته الرائدة عن تاريخ علم الاجتماع الجزائري.

ومن هنا، تبرز ضرورة إخضاع مفاهيم بورديو لعملية "تبينة إستيمولوجية" تتجاوز مجرد الاستعارة السطحية، لتصل إلى إعادة صياغة الرساميل بما يتوافق مع رمزية المجتمع الجزائري؛ حيث لا يعمل رأس المال الثقافي في الجزائر بالضرورة وفق المعايير 'الأرستقراطية' الفرنسية، بل يتشابه مع الرأسمال اللغوي (بصراعاته بين العربية والفرنسية) والرأسمال التاريخي (الشرعية الثورية). إن التحرر من التبعية النظرية التي ينشدها عيادي لا يعني رفض أدوات بورديو، بل يعني تفكيكها لإعادة بنائها داخل مختبر الواقع المحلي؛ بحيث يتحول الهابيتوس من قالب جامد إلى مفهوم ديناميكي يعكس التحولات العنيفة التي مر بها الفرد الجزائري بين صدمة الاستعمار وطموحات الدولة الوطنية. إن هذا التوجه النقدي هو الكفيل بنقل السوسيولوجيا الجزائرية من مرحلة الاستهلاك النظري إلى مرحلة الإنتاج المعرفي، مما يحقق قطيعة حقيقية مع التبعية العلمية ويؤسس لمدرسة سوسيولوجية جزائرية تقرأ ذاتنا بعيوننا، لا بعيون الآخر.

2. التكامل النقدي بين بورديو وأطروحة عيادي

على الرغم من أن بورديو وعيادي ينطلقان من سياقات مختلفة، إلا أن هناك نقاط تقاطع وتحول يمكن استغلالها لتعميق التحليل:

نقطة التقاطع (إعادة الإنتاج): يمكن استخدام مفهوم "إعادة الإنتاج" (Reproduction) لدى بورديو لشرح كيف أن النظام التعليمي العربي/الجزائري، باستيراده للبراديغم الغربي (المصبوغ بالصبغة الغربية)، يقوم بإعادة إنتاج التبعية الثقافية والفكرية بدلاً من إعادة إنتاج الهوية الوطنية المستقلة. أي أن التعليم يُنتج خريجين لديهم "هابيتوس" معرفي مقتبس لا يتسق مع "الرأسمال الثقافي" الأصيل للمجتمع. إن حرمان الطالب من هذا الرأسمال الثقافي الأصيل يؤدي إلى فقر رمزي وهوياتي، يترجم إلى "هدر تربوي" حتى لو نجح الطالب تقنياً في الامتحانات.

نقطة الافتراق (البراديغم): يكمن التحول النوعي في التركيز. ففي حين يركز بورديو على صراع الطبقات وإعادة إنتاج التراتب الاجتماعي والاقتصادي، يركز عيادي على صراع الهويات وإعادة إنتاج القوة الحضارية. عيادي يطالب بتأسيس براديغم إسلامي/وطني يركز على "ترسيص القواعد الثقافية" كبديل للأسس الفلسفية للتربية الغربية. إن إعادة إنتاج التبعية في منظور عيادي هي أشد خطراً من إعادة إنتاج التراتب الطبقي؛ لأنها تقضي على القدرة على الإبداع الحضاري ذاته.

3. الحاجة إلى نظرية تربوية إسلامية أصيلة:

تتوازي أطروحات عيادي مع دعوات أكاديمية واسعة تطالب بنقد الأسس الفلسفية للنظريات التربوية الغربية والتحرك نحو تأسيس نظرية تربوية إسلامية. هذا التحول ليس مجرد دعوة لأسلمة المناهج، بل هو مسعى للتحرر الفكري والإستيمولوجي.

تتطلب هذه النظرية البديلة أن تخرج من حظيرة العلوم الإنسانية التي، كما ذكر عيادي، لا تزال قابضة على الإطار الإيديولوجي الغربي. يجب أن تستقي هذه النظرية أحكامها القيمية واستراتيجياتها من البيئة المحلية وظروف المجتمع، لضمان عدم

التبعية الإستمولوجية وأزمة الهوية في سوسيولوجيا التربية: دراسة تحليلية هراو خثير

فرض قيم غربية عليه. إن الفشل في تحقيق هذه "الثورة" المعرفية يبقي الجامعات العربية مجرد مستهلك للمعرفة المنتجة في الغرب، ويجعل التعليم عملية عقيمة غير قادرة على تلبية متطلبات التنمية الحقيقية أو بناء الأمة.

خامسا: التحديات التطبيقية للنظام التربوي الجزائري

يعد النظام التربوي الجزائري مختبراً واقعياً لتطبيق الأطروحات النقدية لسعيد عيادي، حيث تتجسد فيه العديد من الإشكاليات التي تنبع من التبعية الإستمولوجية وغياب القوة الثقافية الدافعة.

1. سوسيولوجيا الفشل المدرسي: الهدر والتسرب

على الرغم من الجهود الإصلاحية الدورية المبذولة، يظل النظام التربوي الجزائري يواجه أزمة مستمرة تتجسد في "أوجه الهدر التربوي البارزة للعيان". وتُشير إحصائيات سابقة إلى حجم المشكلة، حيث يبلغ عدد الأطفال الذين يهجرون مقاعد الدراسة سنوياً حوالي 400 ألف طفل. وبينما تؤكد بعض المصادر أن نسبة التسرب المدرسي في الجزائر هي "الأضعف" مقارنة بدول الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، رغم ذلك تظل المشكلة قائمة وتستدعي تحليلاً عميقاً لأسبابها الجذرية.

كشفت الدراسات الميدانية حول المتسربين عن أسباب متعددة للإخفاق المدرسي، منها: النزاع العلائقي بين التلميذ والأستاذ، الترويج السلبي لصورة المدرسة، غياب الدور الفعال لمستشار التوجيه والإرشاد (الذي أصبح دوره إدارياً)، والوضع الاجتماعي للطالب.

من منظور عيادي، تُعد هذه الأسباب المعلنة (النزاع، غياب الإرشاد) أعراضاً وليست الأسباب الجذرية. إن النزاع العلائقي هو نتيجة حتمية لـ "فقدان المؤسسة التعليمية لقوتها الثقافية الدافعة". إذا لم تنجح المدرسة في تقديم رؤية حضارية جامعة للطالب، وفشلت في خلق بيئة تعليمية ذات معنى تتوافق مع هويته الأصيلة، فإنها تفشل في خلق علاقة توافقية. وبدلاً من أن تكون المدرسة فضاءً للانتماء الوجودي، تتحول إلى علاقة إجرائية عقيمة يسودها الصراع وتُفضي إلى التخلي عن الدراسة.

2. دور الأسرة والتمكين في النموذج التربوي المقترح

لتحقيق التغيير الإيجابي والتحرر من الهدر التربوي، يقترح عيادي نموذجاً يركز على تمكين الطفل وإشراك الأسرة بشكل جذري. يشدد على أن الحاجة الأولى هي "تمكين الطفل ليكون قادراً ومستعداً للتغيير". يتضمن هذا التمكين بناء القدرات والاستعدادات الضرورية لاكتساب القواعد السلوكية والعملية مثل الانضباط، التركيز، الفرز، والتمييز، وأداء المهام بوعي والتزام.

إن هذه المهارات (الانضباط والتركيز) ضرورية بشكل خاص في عصر التغيير السريع. عندما تكون المدرسة مشغولة بإعادة إنتاج معرفة مستوردة لا تتفق مع الهوية، فإنها تحمل تمكين الطفل بالقدرات الأساسية للتحكم في حياته وتصريف شؤونه بحكمة.

ويبرز عيادي دور الأسرة كشريك تربوي أساسي، مؤكداً (بالاستناد إلى ألبير باندورا) أن الروضة هي "مدرسة الأولياء". يجب إشراك الأولياء كـ "شريك تربوي نفسي موجّه" لضمان الاكتسابات التربوية الفاعلة والتوازن الشخصي للطفل.

التبعية الإستيمولوجية وأزمة الهوية في سوسيولوجيا التربية: دراسة تحليلية هراو خثير

وينتقد عيادي بشدة الدور التقليدي للأسرة الذي يقتصر على السؤال عن الطعام واللعب ، داعياً الأولياء إلى "احتلال المواقع التربوية" والمشاركة في عملية التشريب وتكييف المهارات. إن الفشل في ترسيخ القواعد الثقافية يؤدي إلى فشل عملي في تزويد الطفل بمهارات الحياة الأساسية للتغير الإيجابي. (الهادي، 2006)

سادسا: التحديات السوسيويديداغوجية في الجزائر:

يبرز التحليل المقارن للفوارق بين التشخيصات السطحية (البيداغوجية والإدارية) والأطروحة البنيوية العميقة التي يقدمها سعيد عيادي لأزمة التعليم في الجزائر تحولاً في مستوى التعاطي مع الإشكاليات التربوية. ففيما يتعلق بظاهرة الهدر والتسرب المدرسي، تكتفي التشخيصات المعلنة بتناول الأسباب العلائقية المباشرة والسطحية، مثل النزاع العلائقي بين التلميذ والأستاذ أو غياب دور الإرشاد المدرسي الفعال، وهي كلها أسباب وظيفية تركز على الخلل الإجرائي. بينما يقدم تحليل عيادي بُعداً بنيوياً عميقاً يربط الهدر بفقدان المؤسسة التعليمية لقوتها الثقافية الدافعة وعدم قدرة النموذج التعليمي المستورد على خلق علاقة توافقية أو اندماجية مع هوية الطالب. هذا يؤكد أن الأزمة ليست مجرد أزمة سلوك أو إرشاد، بل هي أزمة هوية وقيم فشل النظام في تزويد الطالب بهوية مرجعية جاذبة.

وفي سياق فشل الإصلاحات التعليمية المتكررة، تميل الأسباب المعلنة إلى إلقاء اللوم على عوامل إدارية أو تشريعية وبيداغوجية، مثل ضعف الموارد أو قصور الإطار القانوني. لكن المقاربة العميقة لعيادي تتجاوز هذه المظاهر لتصل إلى الجذر الإستيمولوجي للأزمة، وهو التغذية على معرفة "مصبوغة بالصبغة الغربية". "إن هذا الرفض الضمني أو العلني للقيام بـ "تغيير جذري" يشمل إعادة النظر في المقررات، يعني أن فشل الإصلاحات ليس تقنياً بل فشل إرادي/سياسي ثقافي في التحرر من التبعية المعرفية، مما يجعل أي محاولة إصلاح شكلية ومحكومة بالفشل طالما بقيت المرجعية الثقافية والمنهجية للمعرفة مستوردة ومغتربة.

3. إصلاح الجامعة وربط التعليم بالحقائق الوطنية

يمتد نقد عيادي ليشمل التعليم العالي. فالجامعة الجزائرية تواجه تحديات كبرى في علاقتها بالمجتمع وربط برامجها باحتياجات التنمية وسوق العمل.

من منظور عيادي، يجب أن تتجاوز أهداف الجامعة مجرد تلبية احتياجات سوق العمل من التخصصات المختلفة ، وأن ترتقي إلى تخريج "قادة المجتمع وحملته نهضته". هذا يتطلب ربط التعليم الجامعي بـ "الحقائق الوطنية لمعالجة المشكلات الوطنية". كما يؤكد على أهمية تحديد استراتيجية وطنية تكون بمثابة مصدر للأحكام القيمية التي تتوافق مع ظروف المجتمع، بدلاً من استيراد قيم غريبة. إن الهدف ليس مجرد توفير الكوادر البشرية، بل بناء القائد الذي يحمل رؤية حضارية، وهذا يعود مجدداً إلى مفهوم "القوة الثقافية" كشرط للنهوض.

إن الأسباب السطحية تربط غاية التعليم بشكل مباشر باحتياجات سوق العمل والتخصصات، مختلة الهدف التربوي في البعد الاقتصادي والوظيفي. في المقابل، يرى التحليل البنيوي أن هذا الاختزال يؤدي بشكل دوري إلى إعادة إنتاج التبعية المعرفية والإرث الكولونيالي بدلاً من التنمية الذاتية. ويُعد الفشل في تطوير ملكة بفتح الميم مع الرأسمال الثقافي الوطني، هو

التبعية الإستيمولوجية وأزمة الهوية في سوسيولوجيا التربية: دراسة تحليلية هراو خثير

جوهر الأزمة السوسيولوجية هنا، فالمدرسة أو الجامعة لا تقوم بإنشاء أنماط سلوكية وتفكيرية تتناغم مع القيم المحلية، بل تساهم في تكريس انفصال بين رأس المال الثقافي للفرد وهويته، مما يؤدي إلى استمرار بنية اجتماعية تعليمية خاضعة، بدلاً من أن تكون منتجة للاستقلالية والتفوق الحضاري.

إن الإقرار بوجود جهود إصلاحية وقانون توجيهي يسطر أهدافاً، في ظل استمرار الأزمة، يشير إلى أن "الدواء لم يوضع على موضع الداء". موضع الداء هو التبعية الإستيمولوجية ونقص القوة الثقافية. ولذلك، فإن الإصلاحات القانونية والبيداغوجية السطحية تفشل لأنها لا تعالج جوهر الأزمة المتمثل في الإطار الفلسفي والقيمي الذي يقوم عليه النظام.

سابعاً: نحو براديغم تربوي عربي أصيل

إن الإرث الفكري للبروفيسور سعيد عيادي يمثل مساهمة محورية في سوسيولوجيا التربية النقدية، حيث نقل التركيز من البعد الوظيفي إلى البعد الإستيمولوجي والحضاري. وقد أكدت أطروحته أن الأزمات التعليمية في العالم العربي ليست عجزاً تقنياً، بل هي نتاج لأزمة إرادة ثقافية وقيمية عميقة.

تتلخص الأطروحة المركزية لعيادي في أن التحرر من التبعية الإستيمولوجية هو الشرط الأول للنجاح التربوي. لقد استقر التحليل على أن الجامعات العربية تتلقى معرفة مصبوعة بصبغة أيديولوجية، مما يستوجب "ثورة معرفية" شاملة تتطلب "إعادة النظر في كل ما يعطى في جامعاتنا".

إن تثبيت القاعدة بأن "القوة الثقافية هي المحدد الأهم للنجاح التربوي والحضاري" يتطلب إعادة دمج القيم والرموز الوطنية والدينية في صميم العملية البيداغوجية، على النقيض من النموذج المستورد الذي يفصل البيداغوجيا عن البعد الوجداني والهوياتي. هذا يتطلب تحريراً فكرياً يهدف إلى تأسيس علم اجتماع عربي قادر على تحليل الواقع بعيداً عن الإرث الكولونيالي الذي لا يزال يشد قبضته على بنية العلوم الإنسانية في المنطقة.

1. المقترحات الاستراتيجية لترسيخ القواعد الثقافية

بناءً على نقد عيادي، يمكن استخلاص مجموعة من المقترحات الاستراتيجية التي توجه مسار الإصلاح نحو الأصالة والفعالية الحضارية:

1.1. على مستوى الأسرة والمجتمع: يجب تفعيل الدور التربوي للأسرة واعتبارها "مدرسة الأولياء". وهذا يتطلب حملات توعية للأولياء ليكونوا شركاء تربويين ونفسيين موجّهين، لضمان اكتساب الطفل للانضباط والفرز والتميز، وهي مهارات ضرورية للتحكم في قضايا الشخصية وتجنب الهدر التربوي.

1.2. على مستوى المؤسسة الإعلامية والتربوية: يجب استخدام جميع الأدوات الثقافية، ومن ضمنها الإعلام الجوّاري الذي أشار إليه عيادي، لترسيخ "الأمن الثقافي" عبر تقديم ثقافة جزائرية أصيلة ومتراكمة تاريخياً. هذا يخلق الوعي الوطني ويوحد الموقف الوطني لمواجهة التحديات الأجنبية.

التبعية الإستيمولوجية وأزمة الهوية في سوسيولوجيا التربية: دراسة تحليلية هراو خثير

على مستوى الجامعة والبحث: يجب تبني استراتيجيات بحثية تهدف لـ "ربط التعليم الجامعي بالحقائق الوطنية"، لخدمة الأهداف المجتمعية ومعالجة المشكلات الوطنية. يتطلب هذا الانتقال من استنساخ النماذج الأجنبية إلى تطوير استراتيجية قيمية محلية تكون مرجعاً للأحكام القيمة. هذا التحول هو السبيل لتخريج قادة الأمة وحملة نهضتها بدلاً من مجرد تلبية السوق.

خاتمة:

إن إرث الدكتور سعيد عيادي يمثل دعوة ملحة للعمل السوسيولوجي الأصيل الذي يتجاوز التبعية الإستيمولوجية. لقد نبه عيادي إلى أن التبعية الفكرية لا تؤدي إلى أزمة في التعليم فحسب، بل إلى عجز عن تحقيق التغيير في المجتمع برمته. إن مساهماته الفكرية، المتمثلة في ترسيص القواعد الثقافية وإعادة البناء الحضاري انطلاقاً من الذات، تضع الأساس لمسار سوسيولوجي نقدي جديد يتخذ من الهوية والقوة الثقافية منطلقاً للبناء الحضاري الشامل.

5. قائمة المراجع:

- أحمد، م. م. (2014). دراسة تحليلية الأنوميا والتفكك الاجتماعي في ضوء النظرية الدوركهايمية. مجلة العلوم الاجتماعية.
- الهادي، ع. (2006). سوسيولوجيا الطفولة: مقاربات نظرية وميدانية لواقع الطفولة والروضة في الجزائر. دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع.
- حداد، م. (2018). التربية والتعليم في الجزائر أصول وتحديات. الجزائر: دار المثقف.
- سعيد، ع. (2018). سوسيولوجيا الجريمة والانحراف في المجتمع الجزائري. دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع.
- عيادي، س. (2009). البراديقم الاسلامي لاعادة البناء الحضاري. الجزائر: دار قرطبة.
- عيادي، س. (2009). ترصيص القواعد الثقافية لاعادة البناء الحضاري. الجزائر: دار قرطبة.